

تجربة السجن وانعكاساتها في شعر عدي بن زيد العبادي

خليل عبدسالم الرفوع

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن

ملخص

هذه الدراسة محاولة للبحث في شعر عدي بن زيد العبادي، الذي كتبه حينما كان سجيناً في سجن النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وأظهرت الدراسة الأسباب التي دفعت النعمان لسجن عدي كما جلت رؤية الشاعر في هذه الأسباب. إذ رأى أنها كيد وشاة وأن سجنه كان ظلاماً وحراماً، ووقفت الدراسة على صورة الشاعر في السجن ومعاناته النفسية والجسدية، ورسائله التي خاطب بها النعمان؛ إذ بدأت بالاعتذار والاسترحام ثم تطورت إلى العتاب والنقد ثم إلى التشنيع والهزاء، وفي تصويره لأهله رسم الشاعر صورة لنسائه الضعفى وبكائهن عليه ليثير عاطفة الملك الإنسانية، وحينما أخفق في ذلك استنهض ابنه وإخوته واستصرخهم ليفكوا قيوده، بيد أن صرخاته الشعرية المدوية لم تحرك فيهم ساكناً، وفي شعره الوعظي يصدر الشاعر عن حقيقتين هما: حتمية الموت وتقلب الدهر وعيبه بمصير الإنسان، ويبدو الشاعر في هذا الشعر صاحب رؤية فلسفية وجودية تتفق مع رؤى الشعراء الجاهليين في عبثية الحياة وحتمية الفناء.

Abstract

This study deals with the poetry of Adie Ibn Zaid Al-Abbadi that he wrote during his imprisonment in the prison of Al-Noman Ibn Al-Munther, king of Hearn. The paper studies the reasons that obliged Al-Noman to put him in Jail and the poets point of view of these reasons; he thinks that the punishment was not fair at all. In addition, the paper describes the poet's physical and psychological suffering and depression.

When describing his family, the poet portrays his wives as weak in order to arouse the pity of the king to release him from jail, but his attempts failed.

In his didactic poetry, the poet concentrates on two major points that represent the author's philosophical view of life: the certainty of death and the absurdity of life, views similar to those Arab ancient poets.

الطريق إلى السجن: السبب والرؤية:

يعد الشاعر عدي بن زيد العبادي (١) شاعر الحيرة الأشهر في العصر الجاهلي ويجمع إلى جانب الشهرة الشعرية شهرة سياسية وعمقاً ثقافياً دينياً ذا ملامح عربية فارسية، ويقرر الجاحظ هذه الملامح بقوله: "كان عدي نصرانياً دينياً وترجماناً، وصاحب كتب، وكان من دهاة أهل ذلك العصر" (٢). لقد عاش عدي في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وعاصر النعمان بن المنذر، وساهم في توليته الحيرة، وقد نشأ عدي في أسرة تشغف بالمعرفة؛ اتخذت من الكتابة وسيلة لارتقاء سلم المجد ودخول قصور الأكاسرة والمناذرة (٣).

وقد اختصت أسرة عدي بخدمة البلاط الفارسي وصدافة الأكاسرة، فحينما أيفع عدي طرحة أبوه في الكتاب، حتى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه؛ إلى كتاب الفارسية فكان يختلف مع ابنه، ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية، وقال الشعر، وعلم الرمي بالنشاب فخرج من الأساورة الرماة، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالة وغيرها (٤). وقد توسط له المرزبان لدى كسرى وشهد له، وأوصى بعدي خيراً لكي يعمل لديه فاستدعاه، وكان أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى وكان عدي صاحب مكانة عند الأكاسرة والمناذرة معاً، وعن مكانته تلك يقول أبو فرج الأصفهاني: إن أهل الحيرة قد رغبوا عدياً ورهبوه، فلم يزل بالمدائن في ديوان كسرى يؤذن له عليه في الخاصة، وهو معجب به قريب منه وأبوه زيد بن حماد يومئذ حي، إلا إن ذكر عدي قد ارتفع ونمّل ذكر أبيه فكان عدي إذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدي، فعلا له بذلك صيت عظيم (٥).

وكان عدي ينتقل بين المدائن والحيرة، ويقوم بمهمتين كبيرتين فيهما، ففي المدائن هو الكاتب المفضل والسفير المقرب، فقد حمل إلى ملك الروم هدية كسرى إليه كما يروي الأصفهاني (٦)، كما كان في المدائن مستشاراً مؤمناً، وفي الحيرة هو المربي والمؤدب، والكافل للنعمان بن المنذر، ويروي أبو الفرج الأصفهاني عن هشام الكلبي: أن المنذر جعل ابنه النعمان في حجر عدي بن زيد الذي تكفل بإرضاعه ثم تربيته وأوصاه بابنه النعمان حينما أشرف على الموت، وكان المنذر هذا قد خلف عشرة أولاد أوصى بهم إلياس بن قبيصة الطائي ليرى كسرى رأيه في واحد منهم، ولكن عدياً بدعائه وقربه من كسرى استطاع أن يقدم النعمان إلى كسرى ليملكه الحيرة -وبذلك كسب عداوة عدي بن مرينا رأس هذه الأسرة وهو أحد أعيان الحيرة ورجالاتها، فحقق بن مرينا على عدي بن زيد وكان يعمل على أن يتولى (الأسود) بن المنذر إمارة الحيرة، وتتفق الروايات التاريخية على أن عدي بن مرينا ظل بعد ذلك يكيد لعدي بن زيد المؤامرات

ويسعى بالدسائس بينه وبين ربيبة النعمان حتى أوغر صدر النعمان عليه فأودى بعدي بن زيد إلى غياهب السجن، وحينما علم كسرى أمر النعمان بإطلاق عدي بن زيد فقتله قبل وصول الرسول إليه(٧). وبعد مقتل عدي ثار ابنه زيد من قاتله النعمان، فظل يشي به عند كسرى وشاية انتهت بالنعمان تحت أرجل الفيلة، وجعلت المؤرخين بعد ذلك يعدون هذه الحادثة سبباً رئيسياً من أسباب وقعة ذي قار المشهورة(٨).

ولعل ما يميز حياة الشاعر عدي بن زيد ذلك التضاد بين حياتين؛ حياة الماضي وما فيها من وجاهة سياسية وسلطة اقتصادية ورفاهية عيش، وبين حياة السجن وما جلبته من شعور بالظلم والقهر والتأزم الدائم. ومن خلال ما ذكر سابقاً نلاحظ أن سجنه كان لموقف سياسي وقفه ولم يجد من يدافع عنه طوال سجنه، فأحس بالغبن والإجحاف لأن المؤسسة السياسية التي خدمها خذلت، ولم تقدره حق قدره وهو بذلك يختلف عن غيره من الشعراء في ذلك السبب، وكان سجنه غربة قاسية أثرت في حياته وشعره، وظهرت أصداؤه وآثاره فيهما، فالسجن لعدي فجعة ذاتية لا يشترك فيها سواه، وتجربة ألهمت قريحته بتأملات فلسفية إنسانية تستحق أن ينظر فيها. ويمكن القول: "إن أصل كل تأليف أدبي هو تجربة مارسها المؤلف، وهذه التجربة قد تكون من أي نوع كان، وقد تكون مما يصادف المؤلف في حياته ولكن يجب أن يكون في التجربة أمر غير مألوف إذا اضطرب صاحبها لأن يتكلم بإتقان وبراعة، وأن ينقل تجربته إلى فكر الآخرين"(٩).

وإذا كان الأمر كذلك فإن تجربة السجن أشد وقعاً على النفس عند الشاعر من غيرها، وبخاصة إذا كان مظلوماً، وقد كان عدي بن زيد صاحب تجربة مريرة فهي تنبعث عن معرفة صحيحة غير زائفة أو مصطنعة؛ فقد عرف بفكره عناصرها، ودبت في نفسه حمياها"(١٠)، وقد قيل لأعرابي: "ما بال المراثي أجود أشعاركم قال: لأننا نقول وأكبادنا تحترق"(١١).

فعدي في سجنه يصور حقيقة الأسر وكبدته تحترق ونفسه تتقاطر حشرات، ويزداد الأسى بين جوانحه بعد أن آمن بحقيقة مرة، وهي أن النعمان بن المنذر ربيبه قد دفعه إلى السجن دفعاً دون جريرة ارتكبها أو جناية جناها، فقد كان سجنه كيداً عظيماً من أعدائه، كما يقول عدي(١٢):

سعى الأعداء لا يألون شراً
عليّ وربّ مكّة والصليب
أرادوا أن يمهّل عن كبير
فيُسجن أو يُهدى في قليب

وإنه لقسم عظيم أن يخلف بالله رب البيت والصليب، وهما رمزان لهما منزلة دينية عميقة في نفوس جميع العرب (المخاطبين) ونفس هذا الشاعر النصراني المتدين، وفي هذين البيتين تأكيد على أمرين اثنين؛ أولهما أن من سعى للإيقاع بالشاعر هم خصماؤه الذين توحّدوا ضده، وأخذوا يسارعون في التأليب عليه

وقد نجحوا في ما سعوا إليه ونجحوا في صدع علاقة الشاعر بالملك الصديق، وثاني الأمرين أن ثمة حقيقة يؤمن بها الشاعر إيماناً كاملاً يجليها ذلك القسم، هي أنه قد ظلم من أولئك القوم الذين سلكوا كل السبل للتخلص منه، وكانوا قوماً لداً ولذا أطلق عليهم الشاعر الثعالب والضباع في قوله (١٣):

ألا تلك الثعالبُ قد توالَتْ عليَّ وحالفتْ عرجاً ضياعاً
لتمضغني العداةُ فمُرُّ لحمي وأفرقُ من حذاري أو أتاغاً

فقد صار لحمه مُراً في أفواه أولئك الأعداء بعد أن جربته، بيد أن هؤلاء قد تناولوا عليه في

الأحاديث الملفقة الباطلة، وظلوا يشمتون به بعد أن حققوا مآربهم، يقول (١٤):

وتقولُ العداةُ أودى عديُّ وعديُّ بسُخطِ ربِّ أسيرٍ
لا بسُخطِ المليكِ ما شيعَ العبدُ ولا في عقابِهِ تنكيرُ
ظَنَّةٌ شُبّهَتْ فأملِكْهَا القسَمُ فعَدَّاهُ والخبِيرُ خبيرُ
وكلاناً برُّ يساعدهُ برُّ وربِّي لما أتى معذُورُ

وفي هذا الشعر نلاحظ أن الشاعر يقرر حقيقتين فيهما مفارقة واضحة وإن حاول الشاعر أن يترفق في بثهما، فهو من ناحية يُعاقبُ عقاباً عسيراً في سجن الملك النعمان، لكنه من ناحية أخرى يلتمس لهذا الملك مسوغاً مبدوءاً بالشبهة بالشاعر ومنتهاً بالشك به، وهو أمام تلك المفارقة لا يحمل الملك مسؤولية سجنه لشدة ذلك عليه؛ لأنه (الملك) غير عليم بالحقيقة التي يعرفها الشاعر وأعداؤه، وأغلب الظن أنه برر للملك فعله ليقبه بعيداً عن دائرة المؤامرة لعله يعود إلى سبيل الحق فيخرجه من السجن، وتنداح الدائرة بينهما ولا تضيق، ولذلك التمس له العذر وأطلق عليه البر الصالح، وعدي في حديثه عن سجنه يصدر عن رؤية دينية كي يقنع الملك في ذلك، وبخاصة إذا علمنا أنه كان سبباً في تنصر النعمان كما يروي أبو الفرج الأصفهاني (١٥) ويتضح ذلك من خلال قسمه السابق ولوصفه النعمان بالبر، ولتحريره هذا الظلم السذي يعيشه بين جدران السجن:

وما ظلمُ امرئٍ في الجيْدِ غُلٌّ وفي السَّاقينِ ذو حلقٍ طويلٍ (١٦)
واسعظام هذا الظلم توجهه النصرانية التي يدين بها الشاعر والملك، فهو محرم شرعاً:
لَيْتَ شعري عن دَخيلٍ يفتري حَيْثُما أدركَ ليلي ونَهاري (١٧)
قاعداً يكرُبُ نفسي بثُها وحرّاماً كان سجنِي واحتِصاري

الشاعر في السجن: الصورة والموقف

إن قيمة شعر عدي بن زيد الأدبية تنطوي على معطيات حقيقية وتجارب صادقة، فهو شعر سُطّرَ بين جدران السجن المعتمة، وخط بين سراديبه المظلمة، ولهذا فهو يكشف عمّا في السجون من رهبة دائمة،

وقسوة جسدية، ومعاناة نفسية، فالجسد قد ابتلي بالقيود والأصفاد، والنفس تتألم وتحاصر داخل ذلك الجسد المعذب وفي شعر عدي نرى تكتيفاً مركزاً على ما يلاقيه من عنت وتعذيب، يقول (١٨):

أبلغاً عامراً وأبلغاً أخصاًه أني مؤثّق شديد وثاقي
في حديد القسطاس يرقيني الحاً رسُ والمرء كل شيء يلاقي
في حديد مضاعفٍ وغُلُولٍ وثياب مُنضّحات خلاق

فهذه رسالة يوجهها الشاعر إلى أخويه، وهي محملة بصور المعاناة، فقد شدت عليه أصفاد الحديد شداً محكماً، وهذه المبالغة في وصف كثرة القيود الحديدية التي تحاصر جسده كله على الرغم من وجود الحارس المكلف بمراقبته لتدل على أن الملك يريد إذلال الشاعر وإهانته بعد أن كان سيداً كبيراً، فهو يلاقي في السجن عذاباً أليماً، ويقدحه الحارس بنظرات الاستحقار القاتلة، ومن ألوان التعذيب التي ترهقه أن ثيابه البالية الممزقة ترش بالماء البارد ليزداد ألماً وفرقاً (١٩). ويزداد قلق الشاعر حينما يشعر بتراكم أمواج الظلام عليه، وتوقف الزمن وتجمده عند تلك اللحظة المؤلمة الثقيلة، يقول (٢٠):

لمن ليلٌ بذي جُشُم طويل لمن قد شفه همٌ دخیلٌ

ففي البيت الأول تظهر مكابدة الشاعر من طول الليل الذي أرخى سدوله عليه بعد أن باتت الهموم الجديدة المتكاثرة في نفسه لا تغادرها ألبة، فقد توقف الزمن لا يتحرك ولا يتحول جالباً المزيد من البلايل التي تزداد وتتضخم، فتثقل روحه مثلما تقيد الأغلال عنقه ويديه وقدميه، وثمة أبيات فيها قدر من التأمل والمناجاة، يقول عدي (٢١):

طالَ ذا الليلُ علينا فاعتكر وكأني ناذرُ الصُّبحِ سَمَرُ
من نحييهم عندي ثاويأ بين ما أعلن منه وأسيرُ
وكانَ الليلُ فيه مثله ولقدماً ظنُّ بالليلِ القصرُ
لم أغمض طوله حتى انقضى أتمنى لو أرى الصُّبحَ جَشِرُ (٢٢)
شئز جنسي كأني مُهدأ جعلَ القين على الدفِّ إبرُ (٢٣)
غيرَ ما عَشِقَ ولكن طارق خلَسَ النومَ وأجداني السَّهرُ

فقد اشتد سواد الليل على الشاعر وبات ينتظر تنفس الصُّبح لكثرة الهموم الثاوية بين ضلوعه، وقد أنسن الشاعر الهموم وجعلها ثابتة لا تنزاح عنه، وجاء الليل معروفاً ليختص بالشاعر وحده فما الليل إلا ليله، والشاعر يقيم هذه المناجاة ليكشف عن شدة المعاناة التي يلاقيها في دياجير الليل الطويل، فهو لم ينم ولم يطمئن به النوم لحظة، فجنه يتجافى على المضجع فيقض عليه ذلك المضجع؛ كالطفل الذي ينام على

دف ناعم الملمس لكنه مليء بالإبر التي تؤذي جسمه وتقطع أوصاله، وفي ظني أن الليل يرمز إلى السجن بظلامه وضيقه وما يجلبه من قلق نفسي واضطراب فكري، وما الخروج من الظلام إلى عالم الصباح إلا خروجاً من غيابات السجن إلى عالم الحياة.

ويكشف الشاعر عما سببه له السجن من حزن وقهر متواصلين وهما يزدادان كلما ازداد الليل طولاً وظلمة، يقول (٢٤):

أرى إن امسٍ مُكْتَبِياً حَزِيناً كَثِيرَ الْهَمِّ يُسْهِدُنِي الْإِسَارُ

فالليل عند عدي باعث للقلق والرعب، ومصدر للهم والتوتر، ويلجأ الشاعر إلى الله ليفرج عنه تلك الهموم والكروب، سبيله إلى ذلك الرجاء والصبر يقول (٢٥):

خَلَا الْأَهْوَالُ إِنَّ الْهَمَّ غَادٍ عَلَى ذِي الشَّغْلِ وَالْبَثِّ الطَّرُوبِ
يُجَاوِبُهُ يَسَارُ اللَّهِ عَنِي وَصَصِرِي فِي مَلَمَّاتِ الْخُطُوبِ

ويعلم الشاعر في لحظة اليأس ضعفه أمام رهبة السجن ليجعل أمره كله لله لعله يستجيب لدعائه واستغاثته:

وَإِنِّي قَدْ وَكَلْتُ الْيَوْمَ أَمْرِي إِلَى رَبِّ قَرِيبٍ مُسْتَجِيبِ (٢٦)

واستغاثته بالله للخلاص من الأسر قوية خالصة لا يخالطها إثم، ويترك الأمر من ثم لميشئة الله:

فَأَذْهَبِي يَا أُمِّيمٌ غَيْرَ بَعِيدٍ لَا يُؤَاتِي الْعَنَاقُ مِنْ فِي الْوُثَاقِ (٢٧)
وَأَذْهَبِي يَا أُمِّيمٌ إِنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ يُنْفِّسُ مِنْ أَرْزَمِ هَذَا الْخِنَاقِ

ولجوء الشاعر إلى الله محاولة لإعادة التوازن للذات ليخفف من وقع المصيبة وهو أيضاً هروب من حاله الضعف إلى القوة، فقد تمثلت حالة الضعف بالسجن وانتظار الموت، وأما حالة القوة فتتمثل بالهجرة إلى الله القوي في لحظة الإذلال واليأس، وتتمثل أيضاً باستحضار الماضي وما فيه من صور الواجهة والشجاعة والفخر، وهذا الاستحضار يعيد إلى نفسه المقهورة الضائعة التعادل والتوازن ذلك لأن هذا الحنين "محاولة للانعقاد من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع فحين يشعر المرء بنقل الحياة ومآسيها يهرب إلى الذكريات الجميلة أو الحزينة، فالذكريات الحاضرة قاسية فإنه قد مرت به أوقات عاش فيها حياة هائنة سعيدة فترضى نفسه ويقر عيناً" (٢٨).

وهو يتكئ على ثلاثة مفاصل في حياته حينما يستذكر ماضيه، وهي اعتزازه بنفسه، وبطولته في الحرب وصبره على الشدائد والمصائب، وفي مخاطبته للنعمان يذكره بقوته وفروسيته إذا التقت الرجال بالرجال في

ساحة الحرب فقد كان سبباً من أسباب انتصار الملك النعمان في حروبه؛ ومن هذا التذكير تفوح رائحة التهديد، يقول عدي (٢٩):

وإن أهلك تحذ فقدي وتُحذَلْ إذا التقت العوالي في الخُطوب

ويتضاعف إحساس الشاعر بالغرابة والسجن فيحن إلى ذكريات الشباب وصفحات المجد مستذكراً صورة الماضي الجميل المائل في نفسه، يقول مخاطباً ابنه عمراً (٣٠):

فلو كنتَ الأسيرَ ولم أكنهُ إذا علمتُ معداً ما أقول
لما قصرتُ عن طلبِ المعالي فتُقصِرني المنيّةُ أو تطول
فإن أهلك فقد أبلّيتُ قومي بلا كلّه حسنٌ جميل

فالشاعر يريد أن ينعتق من واقعه إلى الماضي بكل ما فيه من مضاء العزيمة وعنفوان الشاب ليدفع عن نفسه فكرة الموت؛ ويكيي الشباب وكثرة الشيب في رأسه فالحياة لن تعود كما كانت، يقول (٣١):

وأرى سوادَ الرأس يُنقصُه البلى والشيبُ عن طولِ الحياة يزيدُ
ولقد بكيتُ على الشباب لو أنّه كأنَّ البكاءَ بوعليّ يعودُ
ليسَ الشبابُ وإنْ جزعتَ برأجٍ أبداً وليسَ له عليكُ مُعيدُ

التفاوض مع الملك: من الاستراحام إلى الهجام

لقد منح الشاعر عدي الملك النعمان كل ودّه، وأرسل إليه الشعر مادحاً وراجياً ومستعطفاً، وكان يرسل إليه الشكوى والعتاب وفيهما مرارة من غير هجو، وقسوة من غير عنف على أمل أن يعفو الملك عنه ويفك قيوده ويخرجه من السجن، وهو يريد أن تستمر علاقته بالنعمان كما كانت في الماضي لا يشوبها أي شائبة أو سوء، يقول عدي مسوِّغاً موقفه (٣٢):

ولنْ أدُكّرَ النُعمانَ إلا بصالحٍ فإنْ لهُ عندي يدِيّاً وأنعمَا

فهو وفيٌّ للملك؛ يذكر أفضاله عليه ولا يجحدها، ويصور الشاعر علاقته بالنعمان في ثلاث قصائد من

شعره يبين فيها مستويات العلاقة مع النعمان، يقول في الأولى (٣٣):

أبلغَ النُعمانَ عني مألُكاً	قولَ من خافَ اضْطِئناناً فاعتذرَ
إني والله فاقبلْ جِلْفِي	لأُتيلَ كُلُّماً صَلَّى جَارُ (٣٤)
مرعدٌ أحشاؤه في هيكلي	حسنٌ لِمُتُّه وافيّ الشَّعرِ
مؤمنُ الصُّدرِ يُرجي عتقهُ	يومَ لا يُكفرُ عبدٌ ما ادَّخرَ
ما حَلَمنا الغلَّ من أعدائكم	ولدى الله من العُذرِ المُسرِّ
حولنا الأعداءُ ما ينصُرُنَا	غيرُ عيُونِ الله والله نصَّـرُ

لا تَكُونَنَّ كَاسِيَّ عَظْمِهِ	بَأْسَى حَتَّى إِذَا الْعَظْمُ جَبَرُ
عَادَ بَعْدَ الْجَبْرِ يَنْغِي وَهِيَةً	يَنْحُونُ الْمَشْيَ مِنْهُ فَانْكَسَرُ
وَإِذَا كُرُّ التُّعْمَى الَّتِي لَمْ أَنْسَهَا	لَكَ فِي السَّعْيِ إِذَا الْعَبْدُ كَفَرُ
إِذْ جَعَلْنَاهُمْ تَبَاذِيرَ كَمَا	فَرَّقَ الْقَابِسُ فِي اللَّيْلِ الشَّرُّ

في الشعر السابق صورة طريفة يرسمها الشاعر لنفسه في السجن مخاطباً بها الملك ومعتذراً له بها، وهي صورة دينية تكشف عن مأساته في الأسر بعد أن ضاق بالسجن وضاق السجن به، ووجد في صورة الراهب المتبتل للعبادة مدخلاً ليرقق قلب النعمان عليه، ويخاطبه بيمين صادق؛ يرجوه ويتضرع إليه ويستغيث به ليعفو عنه ويغفر له، وهو في دعائه وخشوعه وتضرعه كان كالراهب الذي انقطع للعبادة ينجي ربه في أحسن هيئة بعد أن وقع في المعاصي؛ ولهذا فهو دائم الصلاة لله والخشية منه والرجاء في مغفرته، قلبه مطمئن بالإيمان، واعتقاده يزاد بأن الله سيكفر عنه ذنوبه يوم القيامة، إن الشاعر في صورة ضعيفة أمام الملك، يعتذر له في الجهرية والسريرة، ويذكره بوقوفه معه وصموده حينما كثر أعداء الملك فناصره وقاتل معه، ويكرر رجاءه ليخرجه من السجن ويدعو ألا يكون كالرجل الضعيف الذي أحبط به وكسرت ساقه فعالجها بالجبارة لكنه مشى عليها قبل أن تجبر فانكسر العظم الكبير، ويفهم من هذا المثل الذي ضربه الشاعر أنه يريد حلاً جذرياً لمأساته، وبخاصة أن النعمان كما يذكر عدي صاحب معروف في الدفاع عن الشاعر في الشدائد التي كانت تلم به من قبل، فهو الذي نكب بأعدائه وفرقهم كالأعواد التي أضرمت النار فيها وبقيت أطرافها واهية مبتورة، ويقول الشاعر في القصيدة الثانية (٣٥):

أَبْلَغُ النُّعْمَانِ عَنِّي مَأْلُكاً	أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِيَّ وَانْتَظَارِي
لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرْقٌ	كُنْتُ كَالْغَصْنِ بِالْمَاءِ اعْتَصَارِي (٣٦)
لَيْسَتْ شَعْرِي عَنْ دَخِيلٍ يَفْتَرِي	حَيْثُ مَا أَدْرَكَ لَيْلِي وَنَهَارِي

ففي هذه الأبيات ثلاثة مستويات من الخطاب بلغه تفاوضية ضمن دوائر يفضي بعضها إلى بعض، ففي البيت الأول يشكو الشاعر من الحبس، ويتوسل إلى الملك ليخرجه من بعد أن طال انتظاره فقد ابتلى السجين من ربيبه وصاحبه وقد ازدادت عليه الكروب والحن بيد أنه لا يث آلامه إلا إلى نفسه، ولم يكن توسله واسترحامه النعمان إلا تمسكاً بالحياة ورفضاً لفكرة الموت، والنعمان عند الشاعر كالماء الذي يعيد الحياة إلى الموات، فلو ابتلى بغير النعمان لكان أهون عليه، ولو شرب بغير الماء لأساغه، أما وقد غص بالماء فكيف يسبغ، ومن خانه ثقافته فقد آتى من مأمنه، وفي المستوى الثاني من الخطاب حديث متقطع عن

الوشاة نلحظه في البيت الثالث والأخير، فهم يكذبون على الشاعر ويقولون عليه الأقاويل في مجلس الملك، ويشمتون به أمامه، وأغلب الظن أنه كان في بلاط النعمان من يضرر للشاعر العداوة ويحرض الملك ضده ليبقى في السجن بعيداً، وفي المستوى الثالث يذكر الشاعر الملك بأسس العلاقة بينهما التي تنهض على:

١- أن الشاعر رفيق الملك وزوج ابنته هند(٣٧).

٢- أن الشاعر وقومه ذادوا عن حمى المناذرة، ودافعوا عن النعمان وأبيه المنذر، وساموا أعداءهم المذل والموت، فقد كانوا أوتاداً ثبتت ملكهم، وعمداً مكنت حكمهم من الاستمرار والبقاء، لهذا الأسباب فهو أحق بمغفرته وغفرانه. وفي القصيدة الثالثة يقول عدي(٣٨):

وَكَلاَنَا بِرُيسَاعِدُهُ بِرُورَبِّي لَمَّا أَتَى مَعْدُورُ
إِنَّ رَبِّي لَوْلَا تَدَارُكُهُ الْمُلْكُ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ سَاءَ الْعَذِيرُ
خَصَّصَهُ اللَّهُ وَارْتَضَاهُ لَمَّا قَدَ-----
مُلْكٌ يَقْسِمُ الْخِزَانِ وَالذِّمَّةَ قَدْ رَدَّهَا وَكَادَتْ تُبْشُرُ
عَالَمٌ بِالَّذِي يُرِيدُ نَقْيَ الصُّدْرِ عَفٌّ عَلَى جُنَّاهُ نُحُورُ

فالملك لم يسعَ لظلم الشاعر ولم يخطط لسجنه، لأنه صاحب شيم كريمة وشماثل طيبة تحول بينه وبين الجور، ويلمس له العذر فما كان سجن عدي إلا مظنة شبهت للملك وكيداً كاده أعداء عدي عند الملك، ويصف الشاعر الملك بصفات الأمانة والصدق والعدل والعفة والتدين وهي أخلاق وسعت أهل العراق، أفلا يحق للشاعر منها ذنوب ليرفع عنه الظلم وتعاد إليه حريته التي سلبت منه في السجن. ويتطور خطاب الشاعر ليكون ذا نبرة عتابية هادئة حينما يكتبه بقوله(٣٩):

أَبَا مُنْذِرٍ جَازِيَتٍ بِالْوَدِّ سَخِطَةً فَمَاذَا جَزَاءُ الْمُبْغِضِ الْمُتَبِغِضِ

ويرسل إليه النصائح من السجن وفيها مسحة من الشعور بالعزة والترفع عن التذلل، ويلومه بعد أن سيطر الوشاة على القرار السياسي في البلاط وسرقوا مال الشاعر وسلبوه بعلم الملك يقول(٤٠):

أَلَا مِنْ مُبْلِغِ الثُّعْمَانِ عَنِّي وَقَدْ تُهْدَى التَّصِيحَةُ بِالْمَغْيِبِ
أَحْظَى كَانَ سِلْسِلَةً وَقَيْدًا وَغُلًّا وَالْبَيَانُ لَدَى الطَّيِّبِ
وَهُمْ أَضْحَوْا لَدَيْكَ كَمَا أَرَادُوا وَقَدْ تُرْجَى الرِّغَائِبُ مِنْ مُثِيبِ
أَتَاكَ بِأَنِّي قَدْ طَالَ حَبْسِي فَلَمْ تَسْأَلْ بِمَسْجُونٍ حَرْبِي

ويحتد العتاب في قوله مخاطباً الثُّعْمَانِ(٤١):

وَكُنْتُ الزَّازَ خَصْمَكَ لَمْ أُعْرِدْ وَقَدْ سَلَكَوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبٍ
أَعَالَتْهُمْ وَأَبْطُنَ كُلَّ سَرٍّ كَمَا بَيْنَ اللَّحَاءِ إِلَى الْعَسِيبِ
فَقُزْتَ عَلَيْهِمْ لَمَّا التَّقِينَا بَتَاخَكَ فَوْزَةَ الْقَدَحِ الْأَرِيبِ

فقد كان الشاعر محارباً لأعداء الملك، لم يهرب أمامهم ولم يجين حينما خذل النعمان حاشيته وبطانته، وهو لم يفش سراً للملك وبقي محتفظاً بأسراره الكثيرة حتى بعد أن أدخل إلى السجن بأمر من النعمان، وما يقلق الشاعر هو أن النعمان يقرب خصوم الأمس ويمنحهم الأعطيات والمزارع وعيون الماء، فقد أصبح الملك ألعوبة في أيدي بني ببيعة أعداء عدي، يقول (٤٢):

أَطَعْتَ بَنِي بَيْعِلَةَ فِي وَثَاقِي وَكُنَّا فِي خُلُوفِهِمْ ذُبَاحَا
مَنْحَتْهُمْ الْفُرَاتَ وَجَانِبِيهِ وَتَسْقِينَا الْأَوَاجِنَ وَالْمَلَاخَا

ويتوتر الخطاب الشعري ليصل إلى مرحلة نقدية لاذعة، وذلك حين تنامي إلى الشاعر تقصير النعمان في حماية المملكة التي تكفل بالذب عن حياضها كلما تعرضت لغارة مغير، فقد كان خرج إلى البحرين فأقبل رجل من غسان في غيبته فأصاب في الحيرة ما أراد وأحرقها فأرسل الشاعر إلى النعمان أبياتاً تشنع عليه لهُوه وتقصيره في حماية الحيرة وإدارة الملك، ويشيد فيها بخصمه المنقض على الحيرة انقضاض الصقر على فريسته، يقول عدي (٤٣):

سَمَا صَقْرُ فَاشْعَلْ جَانِبِيهَا وَأَهْلَاكَ الْمُرُوحُ وَالْعَزِيبُ
وَتَبْنِ لَدَى الثَّوْبَةِ مُلْجَمَاتٍ وَصَبْحَنَ الْعِبَادَ وَهْنٌ شَيْبُ (٤٤)
أَلَا تِلْكَ الْغَنِيْمَةُ لَا إِفَالُ تُرْجِيهَا مَسُومَةٌ وَنَيْبُ
تُرْجِيهَا وَقَدْ صَابَتْ بِقُرٍّ كَمَا تَرْجُو أَصَاغِرَهَا عَتِيبُ (٤٥)

ولعل تطور اللغة التفاوضية وتأزمها في شعر عدي من الاستراحام والاسترضاء إلى العتاب واللوم ومن ثم إلى الهجاء والتشنيع لم يكن إلا بعد أن طال الحبس فلم يعد ثمة أمل للخلاص والنجاة من القيود الثقيلة التي يرسف فيها الشاعر، والآلام المبرحة التي يجترها فكانت تلك الصرخات المدوية التي تفجرت في نفسه المكثومة.

صورة الأهل: نحيب النساء وتقصير الرجال

لقد فُصلَ الشاعر عن أهله وعن مجتمعه وقد زاد هذا الفصل حزنه وأعظم مصيبته، ولعل الانفصال عن الأهل والمجتمع يعادل فقدان العلاقة الجماعية، والاعتراب عن الأهل سيكون أكثر إيلاًماً على الشاعر وأشد قسوة على نفسه، وصدع العلاقة الأسرية تعني ارتداد الإنسان نحو عالمه الداخلي فيجتر معاناته وحده، وتطرد المعاناة كلما ازدادت الوحدة، وهل ثمة وحدة كوحدة السجن ووحشته! لقد أبعد الشاعر عن أسرته وأهله وتخلّى عنه قومه وأصدقائه وندماؤه فلم يسعوا لإخراجه من السجن، وكانوا من قبل يتقربون إليه حينما كان سيداً قوياً، وشعر عدي الذي يتناول الأهل ينقسم إلى قسمين متوالين متكاملين؛ ففي الأول تبدو صورة نسائه وهن يكيّن على ما حاق به من ظلم وسجن، وشعر هذا القسم مرتبط بالمرحلة الأولى من سجنه وما نزل به من معاناة، وفيها رسم الشاعر صورة النساء بملامحها الضعيفة الشاحبة لتكون رسالة يبعثها عدي إلى الملك لعله يشفق عليه من خلال إشفاقه على أولئك النسوة اللواتي تفتطرت قلوبهن حزناً وكمداً على عدي، يقول (٤٦):

أرقتُ لمكفهرٌ بات فيه	بوارقُ يرتقين رؤوسُ شيب
تلوحُ المشرقيّةُ في ذراه	ويجلو صفحٌ داخدار قشيب (٤٧)
كأنّ ما أتما بات عليه	خضبنُ مالياً بدم صيب
يلائن الأكف على عدي	ويعطف رجعهن إلى الجيوب

فهو مؤرق مسهد في السجن، وكان مشهد النساء النائحات يترأى أمامه ليزيد فجيعته، فقد اجتمع أولئك النسوة ومنهن زوجه في مناحة عظيمة، وقد أوجعتهن مصيبة السجن فأخذن يخنش وجوههن، ويكدحن أجسامهن بأيديهن حزناً وفرقاً على عدي حتى تصبب الدم منهن وملاً ثيابهن، وفي مشهد آخر يستحضر الشاعر صورة نسائه بعد أن فقدته فأصبحن أرامل ضعفى ليس لهن إلا النحيب حتى كاد يهلكهن، وشبه دموعهن بقطرات الماء التي تساقط من قرية بالية لم يُحكّم خرزها، وهن يكيّن على الشاعر الذي تألب عليه الوشاة، وحملوه أوزاراً لم يقترفها، يقول عدي (٤٨):

ومالي ناصراً إلا نساء	أراملُ قد هلكن من النحيب
يحدرنُ الدُموع على عدي	كشنُ خائسه خرزُ الرّيب
يحاذرن الوشاة على عدي	وما قرفوا عليه من الذُوب

فقد ظل الشاعر دائم الحنين والتشوق إلى نسائه، وقد استحضّر صورهن ليبين للنعمان ضعفه وقلة حيلته، فليس هناك قوة يستند إليها، وليس هناك ناصر يلجأ إليه، ونلمح في شعره السابق أن ثمة طرفين لهما علاقة بالشاعر، أما الأول: فهو الطرف الأقوى وهم الوشاة الذين يكيدون له الدسائس ليبقى في السجن ذليلاً، وأما الطرف الآخر فنساءه اللاتي يظهرن في هيئة حزينة وحالة بائسة لا حول لهن ولا قوة، ولا يملكن إلا الدموع والدماء التي تراق في سبيل ذلك الشاعر الغائب عنهن في قعر مظلمة كالقبر، وهذه المفارقة في الصورتين تعادل مفارقة أخرى لعلها ناتجة عنها؛ وهي صورة الشاعر المجهور أمام صورة الملك صاحب الأمر والصولجان الذي بيده العفو إن رغب وبخاصة بعد أن رسمت له صورة النساء في رُزْنهن، ويبدو أن الشاعر قد يئس من هذا العفو، فيلتفت إلى ابنه عمرو ليستنهضه في قوله (٤٩):

ألا هبلتك أمك عمرو بعدي	أتقعد لا أفك ولا تصول
ألم يحزنك أن أباك عان	وأنت مغيب غالتك غول
تغيتك الجرادة وسط جسر	وفي كلب وتصحبك الشمول
فلو كنت الأسير ولم أكنه	إذا علمت معد ما أقول

فهو يستنهض ابنه من خلال صورتين متضادتين له ولابنه فإذا كان الشاعر سجيناً يرسف في الأغلال فإن ابنه مغيب عنه في حياة كلها عبث ومجون؛ يطلب اللهو والمتعة عند قيان الحيرة الساقطات وهن أكثر فيها؛ "فقد بلغت حياة اللهو والترف وما يتصل بها من أسباب الحضارة المادية شأواً بعيداً في قصور الحيرة، وكثرت فيها القيان كثرة مفرطة، ولم تكن القيان وفقاً على القصور والملوك وبيوت السادة والأشراف بل كن منتشرات في حانات الحيرة، وكان يؤمها طلاب اللذة واللهو فينعمون فيها باحتساء الخمر وسماع الغناء" (٥٠).

فقد بقي عمرو هناك مهالكا على المتع واللذات، متهاثراً على الخلاعة والمسرات يتلذذ بسماع الموسيقى والغناء والنظر إلى القيان الفاتنات، ويعبُّ من الخمر عباً ليشبع حاجاته ويقضي رغباته، وقد كلن يهدف الشاعر من خلال الإبيات السابقة أن يلفت ذاكرة ابنه إلى هذا الشطط في العبث والإفراط في المجون بينما أبوه في الأصفاد مرهون، ومن خلال هاتين الصورتين المتضادتين المتقابلتين له ولابنه يظهر صوته مستنكراً غاضباً محزناً في آن معاً كي يفيق الابن من غفوته وعبثه ومجونه ليفك القيود عن أبيه ويخلصه من السجن بيد أن صرخته تلك لم توقظ ذلك الابن فيلجأ الشاعر إلى إخوته يستثيرهم قائلاً (٥١):

يا أبا مُسَهِّرٍ فأبلغ رسولاً
إخوتي إن أتيت صحنَ العراقِ

أَبْلَغًا عَامِرًا وَأَبْلَغَ أَحْسَاءُ	أَنْسِي مُوثِقٌ شَدِيدٌ وَثَاقِي
وَفِي حَدِيدِ الْقَسْطَاسِ يَرْقُبُنِي الْحَا	رَسُ وَالْمَرْءُ كُلُّ شَيْءٍ يُلَاقِي
فِي حَدِيدٍ مُضَاعَفٍ وَغُلُولٍ	وَتِيَابٍ مُنْضَحَاتٍ خِلَاقٍ
فَارْكُبُوا فِي الْحَرَامِ فَكُتُّوا أَحَاكُمُ	إِنَّ عَيْرًا قَدْ جُهِزَتْ لِانْطِلَاقِ

فهو يدعوهم إلى التحرك السريع نحوه ليحطموا أبواب السجن ولو في الشهر الحرام؛ وهو الشهر الذي يكون فيه الملك والرعية آمنين مطمئنين لا يتوقعون أن يهجم إخوة عدي على السجن ليخرجوه منه، لكنه يعود ليشكك في تحرّكهم فقد جهزت العير للانطلاق ولكن إخوته في بيوتاتهم لم يرحوها قيد أئمة، ولهذا فإن صرخته الثائرة المثيرة لم تجد من يستجيب لها.

لقد عصت الشاعر أغلال السجن وبلغت آثارها في جسمه ونفسه معاً، واستبد به اليأس حينما أخذ يدعو ابنه وإخوته ويحرضهم فلا يجد ابناً يواسيه في بلواه أو أخاً يشه بنجواه، أو صديقاً يشكو إليه أحزانه؛ فقد تخلى عنه الأقربون وغدر به الأصدقاء، فجزع أشد الجزع وحزن أشد الحزن، وكانت صرخاته المتوالية لا تجد إلا السراب أمامها، فترجع إلى صاحبها باليأس والقنوط، وحينما يشعر عدي بذلك يستسلم لواقعه المؤلم، ويخلص نجياً بيت شكواه لنفسه ويلومها على ما كانت تبذل من معروف ونعم لأولئك الناس الذين قبلوا له ظهر الجحش، يقول (٥٢):

يَا رَبِّ قَوْمَ أَبْلَيْتُهُمْ نَعَمًا	فَهَلْ أَنَا الْيَوْمَ عَمْرُو قَالِبُهَا
مَا نَصَحُوا إِذْ يَرُومُ رَأْيُهَا	رَبِّتَهُ وَالْفُؤَادُ هَايِهَا

حكم وعظية: حتمية الموت وعبث الدهر

لقد كان عدي صاحب ثقافة واسعة شكلتها معرفته باللغتين العربية والفارسية، وقراءته للإنجيل ورحلاته، وصحبته للملك الفرس والحيرة ومعرفته بأخبار الماضين، ومحنه في السجن، ولا ريب أن الشعر مصدر ثقافي للشاعر والقارئ معاً، ولهذا فإن أي شاعر يحمل في عقله وعياً معرفياً متنامياً دائماً، ولا عجب أن نقرأ في الشعر الجاهلي إشارات تاريخية وفلسفة إنسانية لا ترد محاكاة بل ترد لأغراض كثيرة ذات ارتباط مكين بالمضامين التي يتناولها الشاعر في سياق في قد يرتفع أحياناً وقد يهبط مقترباً من النثر المسجوع أحياناً أخرى، ولعل قراءة شعر عدي الوعظي الذي كتبه في السجن تكشف أن هذا الشعر في أغلبه حكم كتبت في لحظات التأزم الوجداني والصفاء العقلي من شاعر يصدر في شعره عن حقيقتين أنتين هما: السجن والموت المنتظر، وهما: حقيقتان مطلقتان جعلتا الشاعر يعيش وضعاً قلقاً متأزماً عاجزاً عن التغيير، ويبدو أن ثمة سببين دفعا الشاعر إلى هذا الوعظ الشعري -وهو المعروف بخمرياته- وأولهما:

السجن وآلامه وهذه البقية من النفس المعذبة التي أخذ الشاعر يناجيها وقد تعاورها الإحساس بالظلم والفقد ودنو الأجل، فكان يتعزى بهذه المواعظ ليخفف من كروبه التي ألمت به ومنحه التي حاقت به وليبعد عنه شبح الموت الذي يقترب منه، وقد ألمح الشاعر إلى ذلك بقوله (٥٣):

ثَمْنُيْ أَرْبَةُ الْوُثَاقِ مِنَ الْمَوْتِ جُهِدٌ وَبُقْيَا نَفْسٍ أُعَاتِبُهَا

وثانيهما: أن هذه المواعظ في رأيي رسالة للملك النعمان، فهي تذكرة له؛ ليقف على مصير أمثاله من الملوك الذين ظنوا أنهم سيخلدون فانتهوا إلى الموت وكانوا أصحاب ممالك قوية، ولعل ما ينبئ بهذا السبب قول الشاعر يخاطب النعمان (٥٤):

أَلَا مِنْ مُبْلَغِ النُّعْمَانِ عَتِّيْ
عِلَانِيَةً فَقَدْ ذَهَبَ السَّرَارُ
بَأَنَّ الْمَرْءَ لَمْ يُخْلَقْ حَدِيداً
وَلَا هَضْباً تَوَقَّاهُ الْوَبَارُ (٥٥)
وَلَكِنْ كَالشَّهَابِ فَنَمَّ يَبُوءُ
وَحَادِي الْمَوْتِ عَنْهُ مَا يَحَارُ
فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِذَا هَلَكُنَا
وَهَلْ بِالْمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارُ

وشعر عدي الوعظي يدور في دائرتين ثنتين متداخلتين أولاهما: حتمية الموت من خلال إشارته إلى الماضي وقصصهم، والثانية تقلب الدهر وعشه بمصير الإنسان. فقد وظف عدي التاريخ والقصص توظيفاً سردياً سريعاً لأنه لم يهدف إلى إبراز قدرته الفنية، "فهو يتخذ من التاريخ دروساً وعظات، يتفكر في مصير الناس وفناء الماضي وزوال النعم، وهو في مواضيع كثيرة من شعره يقص على الناس أخبار الملوك والجبابة الذين أبادهم الدهر وأخنى عليهم الزمان، ولذلك فلا مطمح في الدنيا ولا مأمن عن غدرها فالإنسان ضعيف في هذه الدنيا يسافر في طريق الفناء، فلا يحزنك ما تراه من رفاه الناس وما عليهم من نعمة وترف" (٥٦)، فكثيرة هي النفوس التي تظن أن لن يصيبها الفناء، وكثر هم الرجال الذين لا يذكرون نهاياتهم ويغفلون عن رؤية من سبقهم من الناس الذين اغتالتهم مغالب الأيام، ونشبت أظفارها فيهم، فلم تتركهم إلا صرعى أمام كروها وصروفها، يقول عدي معبراً عن هذه الفلسفة (٥٧):

لَمْ أَرَ كَالْفَتَيَانِ فِي غَيْنِ الْمَوْتِ يَنْسُونَ مَا عَوِظُوهَا (٥٨)
مَا يَغْفُلُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَتَمُّ
فِي كُلِّ صَرْفٍ تَسْعَى مَارِبُهَا (٥٩)
يَرُونَ إِخْوَانَهُمْ وَمَصْرَعَهُمْ
وَكَيْفَ تَغْتَالُهُمْ مَخَالِبُهَا
مَاذَا تُرَجِّي التُّفُوسُ مِنْ طَلَبِ الْخَيْرِ وَحُبِّ الْحَيَاةِ كَاذِبُهَا

ومن الملوك الذين أشار عدي إلى أسمائهم وهلاكهم بعد أن بنوا أجياداً عظيمة، وعمرؤا قصوراً منيفة، فحطفتهم المنايا وهم يأملون التعمير، كسرى أنوشروان (٦٠)، وقباز رب فارس (٦١) وملوك الروم الذين وصفهم الشاعر ببني الأصفر (٦٢)، والملك سليمان الذي زلزل ملكه فجأة (٦٣)، وملوك صنعاء (٦٤)، وبنو الأحرار (٦٥) وملك الحضرة إذ بناه وشيده بالمرمر (٦٦)، ومن الأقوام، قوم نوح وعاد وثمود وغيرها من القبائل التي عصفت بها المنايا فأبيدت، يقول عدي واصفاً النهاية المأساوية لهؤلاء وغيرهم (٦٧):

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ قَوْمُ نُوحٍ	ثُمَّ عَادَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَثُمُودُ
أَيْنَ آبَاؤُنَا وَأَيْنَ بُنُوهُمْ	أَيْنَ آبَاؤُهُمْ وَأَيْنَ الْجُدُودُ
سَلَكُوا مِنْهُجَ الْمَنَايَا فَبَادُوا	وَأَرَأْنَا قَدْ كَانَ مِنَّا وَرُودُ

وإذا كان هذا هو مصير كل ملك فإنه لن يفلت من أيدي المنايا أحد مهما بلغ من العزة والغنى، أو مهما بلغ من الذلة والفقر، يقول (٦٨):

ليس شيء على المُنُونِ بِحَالٍ لَا عَدِيمٌ وَلَا مُثْمَرٌ مَالٍ

وإذا كان الأمر كذلك -وهو كذلك- فإن عدياً يوجه عظاته المباشرة في معانيها الهادئة في إيقاعها لكل ساه غافل، فدائرة الموت لا بدَّ دائرة عليه كما دارت على غيره؛ حتى الطير في أعشاشها لم تنج منها، فما على الإنسان إلا أن يكون براً تقياً سالكاً سبل الهداية، تاركاً الباطل والغرور وهوى النفس، يقول عدي (٦٩):

أَيُّهَا الْمُبْتَغِي سَبِيلَ نَجَاةٍ	أَشْعِرِ الْبِرَّ فِي الْفُؤَادِ ضَمِيرًا
إِنَّ يَوْمِيكَ يُوشِكُ الْيَوْمَ فَاعْلَمْ	أَيُّ يَوْمِيكَ مِنْهُمَا أَنْ يَدُورَا
لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئًا	نَعَصَّ الْمَوْتُ ذَا الْغَنَى وَالْفَقِيرَا
يُدرِكُ الْآبَسِدَ الْغُرُورَ وَيُرْذِي الطَّيْرَ فِي النَّيْتِ يَنْتَسِينَ الْوَكُورَا	
أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ مِمَّا سَيَأْتِي	لَا أَرَى طَائِراً بَجَاءٍ أَنْ يَطِيرَا
أَيُّهَا النَّائِمُ الْمُغْفَلُ أَبْصُرْ	أَنْ تَكُونَ الْمُضْلَلُ الْمُغْرُورَا
ودع النفس عن هواها حفاظاً	أَنْ تَكُونَ الْمُبَادِرَ الْمَبْدُورَا

لقد أكسب السحن عدياً خبرة بالملك ومعرفة بحاشيته ودراية بالناس، فظهر في شعره حكيماً مجرباً، عاركنه الأيام فأرضعته لبانها وأرقته الليالي فأذاقته أفاويقها، ويبقى الإنسان في هذه الحياة غير مطمئن لما ستأتي به الأيام فهي خون جم عجائبها وهذا ما عبر عنه الشاعر عمرو بن كلثوم بقوله (٧٠):

وإنَّ غداً وإنَّ اليومَ رَهْنٌ وبعْدَ غدٍ بما لا تعلِّمينا

ولعل هذا التخوف من الغيب يتقاطع مع حقيقة يحملها الغيب حتماً وهي الموت الذي ما أخطأ الإنسان ولن يخطئه مهما غاب عنه في هذا الكون الذي يشبه بئراً في حقيقته كما يعبر عن هذه الرؤية الشاعر طرفة بن العبد (٧١)، وستخبط به رسل الموت خبطاً شديداً كما يذكر زهير بن أبي سلمى (٧٢)، وهذه الرؤية الفلسفية التي تشي بحتمية الزوال والفناء شكلت ظاهرة في الشعر الجاهلي نلاحظها في كثير من هذا الشعر، وهي ظاهرة القلق الوجودي، فالشاعر قلق على حياته، متوجس من تلك النهاية المحتومة، وهو بين المرتحتين يتأمل هذه الحياة ويتربص الأيام وما تحمله من فرح وحزن، وبناء ودمار، وميلاد وموت، يقول عدي في هذه النظرة التأملية مصوراً ما في الحياة من تقابلات وثنائيات تنماهى في تلك الحقيقة الآتية (الفناء) (٧٣):

من رآنا فليحدث نفسه	أنه موف على قرن زوال
ويخطوب الدهر لا يبقى لها	ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا عندنا	يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها فدم	وعناق الخيل تردى في الجلال
عمرؤا دهرأ بعيش حسن	أميني دهرهم غير عجال
وكذاك الدهر يرمي بالفق	في طلاب العيش حالاً بعد حال

وتتكرر صورة الدهر في شعر عدي لتعني تصاريف الدهر ونوائبه، ويظهر قوة تدبير ظهرها لصيرورة التاريخ الإنساني فهو يغدر بالإنسان، ويرمي به إلى المصائب والنكبات "وهو لا يعتمد في قتاله الإنسان أساليب معهودة؛ لأن قواه غير طبيعية، إنه يرمي البشر في حين يعجزون عن رؤيته وتحديد موقعه" (٧٤)، يقول عدي في تصوير الدهر (٧٥):

فوق الدهر إلينا نبله	عللاً يقصدنا بعد نمل
فهو يرمينا فلا نبصره	فعل رام رام صيداً فختل
رزق الصيد ولاقى غرة	فرمى مستمكناً ثم قتل
فلذاك الدهر مأمور بنل	فهو لا يغفل إن شيء غفل

ففي الشعر السابق يؤنس الشاعر الدهر، ويجعله صياداً ماهراً في حرفته وخداعه وهو قوة غير مرئية، جمع سهامه وجاء قاصداً طلبته من البشر ليرميهم وهم غفل فقد وكل بهم وزاد في نكباته عليهم بعد أن اكتفوا من أول نكبة، ويقول أيضاً مصوراً الدهر (٧٦):

قد أَرَانَا وَأَهْلُنَا بِحَفْـيَرٍ	نَحْسِبُ الدَّهْرَ وَالسَّنِينَ شُهُورًا
فَأَمُّنَا وَغَرَّنا ذَاكَ حَتَّى	رَاعَنَا الدَّهْرُ قَدْ أَتَانَا مُغَيَّرًا
إِنَّ لِلدَّهْرِ صَوْلَةً فَاحْذَرْنَهَا	لَا تَبَيِّنَنَّ قَدْ أَمْنَتَ الدُّهُورَا
قد ينامُ الفتي صحيحاً فيردى	ولقد بات آمناً مسروراً
إِثْمًا الدَّهْرُ لَيْنٌ وَنَطُوحٌ	يَتْرُكُ الْعِظَمَ وَاهِيًا مَكْسُورًا

فالدهر يغير على الإنسان ويفجؤه، وليس له إلا صولة واحدة يقضي بها على الإنسان، وربما كان هجومه ليناً وحينئذ يترك عظامه واهية لا تحبر وحالته سيئة لا تقل في آلامها ونتائجها عن حالة الموت، وفي هذا الوصف يلمح الشاعر إلى صورته بعد أن أصابه الدهر بمصيبة السجن، فذهبت قوته وهزلت صحته، فهو دائم الشكوى مهيب الجناح، محطم الفؤاد لا يقوى على هذه الحياة بعد الرفاهية والدعة وطيب العيش وغضارته.

وإذا كان الشاعر يكشف عن ضعفه واستسلامه أمام قوة الدهر فإن هذه القوة قد أسقطت الملوك عن عروشها فلا يوجد أحد ميراً من مصائب الدهر أو له العهد الوثيق من الأيام.

الهوامش

١. انظر في ترجمته أبا الفرج الأصفهاني الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٠١:٢-١٢٠. ديوان عدي بن زيد تحقيق محمد جبار المعبيد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٩٦٥، ص ٩-١٩. المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق عبدالستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٦٠، ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، ص ١١٣-١١٦. البغدادي، خزانة الأدب، طبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ - ٣٤٥:١٠. ابن رشيقي القيرواني، العمدة، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط ٢، ١٩٥٥، ١٠٢:٢. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٩٥، ٢٢٠:٤. محمد علي الهاشمي، عدي بن زيد الشاعر المبتكر، الطبعة الأولى، حلب، ١٩٦٧. نذير العظمة، عدي بن زيد العبادي شخصيته وشعره، دار مجلة الشعر، بيروت، د. عبدالفتاح عبدالمحسن الشطي، شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٨٩-١٥٩.
٢. الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٨:٤.
٣. محمد علي الهاشمي، عدي بن زيد الشاعر المبتكر، ص ٢٩-٣٠.
٤. الأغاني، ١١٢:٢.
٥. الأغاني، ١٠١:٢.
٦. الأغاني، ١٠٢:٢.
٧. انظر هذه الروايات في الأغاني، ١٠٥:٢-١٠٩. محمد علي الهاشمي، عدي بن زيد الشاعر المبتكر، ص ٣٢.
٨. انظر هذه الموقعة في: الأغاني، ١٢٥:٢، ٢٣:٢٢٥-٢٣٥. الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، ١٩٦٧، ١٩٣:٢-٢١٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصر، طبعة بولاق. ابن عبدربه، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت، دار الفكر، ١٩٤٠م، ٩٦:٦-١٠٢. ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٥٥، ٢٩٤:٤. دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى العربية أحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، عبدالحميد يونس، خوازم خوست، ص ١٤٠. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٩، ٢٩٤:٢. د. السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٦١:١.

٩. لاسل آبركرومي قواعد النقد الأدبي، ص ٤٧-٤٨.
١٠. محمد غنيمي هلال ص ٣٦٤.
١١. الجاحظ، البيان والتبيين، ص ٣٢:٢.
١٢. ديوان عدي، ص ٨٣.
١٣. ديوانه، ص ٣٥.
١٤. ديوانه، ص ٩١، ٩٢.
١٥. الأغاني، ١٠٢:٢.
١٦. ديوانه، ص ٣٤. وانظر، ص ١٠٨.
١٧. ديوانه، ص ٩٣، ٩٤.
١٨. ديوانه، ص ١٥١، وانظر ص ٤١.
١٩. انظر د. عبدالعزيز محمد شحادة، الزمن في الشعر الجاهلي، ١٩٩٥، ص ٢٠٨.
٢٠. ديوانه، ص ٣٤.
٢١. ديوانه، ص ٥٩.
٢٢. جشر الصبح، انفلق.
٢٣. شئز: قلق وذعر.
٢٤. ديوانه، ص ١٣٣.
٢٥. ديوانه، ص ٤٠، ٤١.
٢٦. ديوانه، ص ٤١.
٢٧. ديوانه، ص ١٥١.
٢٨. عبدالرزاق الحشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، ط ١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢، ص ٢٤١.
٢٩. ديوانه، ص ٤١.
٣٠. ديوانه، ص ٣٤.
٣١. ديوانه، ص ١٢٣.
٣٢. ديوانه، ص ١٦٦.
٣٣. ديوانه، ص ٦٠، ٦١، وانظر، ص ٦٢.
٣٤. الأييل: الراهب.
٣٥. ديوانه، ص ٩٣، ٩٤.

٣٦. انظر شرح هذا البيت في: الحيوان، ٥: ١٣٨، العقد الفريد، ١: ٣٢. الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل، بيروت، ٣: ٣٤٠.
٣٧. انظر الأغاني، ٢: ٣٩٨.
٣٨. ديوانه، ص ٩١، ٩٢.
٣٩. ديوانه، ص ١٣٦.
٤٠. ديوانه، ص ٤٠.
٤١. ديوانه، ص ٣٩.
٤٢. ديوانه، ص ١٢٠.
٤٣. ديوانه، ص ١١٤. وانظر: الأغاني، ٢: ١١٨. محمد علي الهاشمي عدي بن زيد الشاعر المبكر، ص ٦٧.
- عبد الفتاح عبد المحسن، شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي، ص ١٠٢.
٤٤. الثوبة: موضع من وراء الحيرة.
٤٥. صابت بقر: أي صارت الشدة في قرارها. عتيب: بطن من جذام.
٤٦. ديوانه، ص ٣٧.
٤٧. الدخدار: الثوب المصون، فارسي معرب أصله (تحت دار).
٤٨. ديوانه، ص ٤٠.
٤٩. ديوانه، ص ٣٤.
٥٠. ناصر الدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٥٣.
٥١. ديوانه، ص ١٥١.
٥٢. ديوانه، ص ٤٩.
٥٣. ديوانه، ص ٤٩.
٥٤. ديوانه، ص ١٣٢.
٥٥. الوبار: دوية من دواب الصحراء على قدر السنور غبراء أو بيضاء.
٥٦. د. يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ط ٧، ١٩٩٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٤١١.
٥٧. ديوانه، ص ٤٥.
٥٨. غين الأيام، ما ينسيهم ما هو فيه من مر الأيام وصروف الدهر.

٥٩. اليتيم: البطء.
٦٠. ديوانه، ص٧٨، ١٧٨، ٢٠٣.
٦١. ديوانه، ص١٢٤.
٦٢. ديوانه، ص٦٥، ٨٧، ١٢٥.
٦٣. ديوانه، ص١٢٥.
٦٤. ديوانه، ص٧٦.
٦٥. ديوانه، ص٤٦.
٦٦. ديوانه، ص٨٧.
٦٧. ديوانه، ص١٢٢. وانظر: ص٦٦.
٦٨. ديوانه، ص٥٦.
٦٩. ديوانه، ص٦٥، ٦٦.
٧٠. ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه وحققه د.إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١، ص٢٥.
٧١. انظر: ديوان طرفة بن العبد، تحقيق درية الخطيب ولطفلي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥م، ص٣٥.
٧٢. انظر: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام ثعلب، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٤، ص٤٩.
٧٣. ديوانه، ص٨٢، ٨٣.
٧٤. أحمد الخليل، ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، ص٧٦.
٧٥. ديوانه، ص٩٩.
٧٦. ديوانه، ص٦٤.